الباب الثاني عشر
في قيامه الليل وصلاته بختم القرآن

* قال أبو الفضل البرمعذري[1] رحمه الله: كان أبو حنيفة رضي الله عنه يجعلُ الليلَ أثلاثاً: ثُلثَهُ للتدريس، وثُلثَهُ للصلاة، وثُلثَهُ للنوم.

* ومرَّ يومًا على الصبيان يلعبون، ومعه أبو يوسف، فقال صبيٌّ منهم: أيُّها الصبيان، هذا نعمان الذي لا ينام. فقال الإمام: يا يعقوبُ، أَسمعتَ ما يقولُ الصبيُّ؟ يُنَبِّهني ربِّي بلسانِ الصبيِّ، فلله تعالى عليَّ ألاَّ أضعَ جنبي على الفراش بعدُ حتى ألقى الله تعالى. قال أبو يوسف رحمه الله: هل يعيشُ الإنسانُ بدوام السهر؟ فقال: لا أُبالي يا يعقوب، إذ لا يليقُ للمؤمن أن يُمدحَ بما لا يُوصفُ، قال الله تعالى: ﴿ وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ ﴾ [آل عمران: ١٨٨] فقال يعقوب: فطوى الإمامُ فراشهَ بعدُ، فعاشَ بعده أَربعين سنة حتى كان يُصلّي الفجرَ بوضوءِ العشاء في هذه المدة.

* قال علي بنُ الحسين المؤذّنُ: فليلةً صلّينا العشاءَ، وخرجَ الناسُ، فرأيتُ الإمامَ بقي مُختفيًا في زوايةٍ جالسًا، فخرجتُ لئلا أُشغلَ قلبَهُ، فتركتُ قنديلاً مُزهرًا، فلمّا طلعَ أوّلُ الفجر أذّنْتُ، وجئتُ بالمسجد، وهو قائمٌ قد أخذَ بلحيته، وهو يقول: يا مَنْ يَجزي بمثقالِ خيرٍ خيرًا، ويا مَنْ يَجزي بمثقالِ شرٍّ شرًا، أَجرْ عبدَكَ النُّعمانَ من النار ولا تُقرّبْها منَّا، وأَدخلْه في سعةِ رحمتك. وكان قد قرأ في العشاء ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ فلمّا دخلتُ والقنديلُ يُزهر، فشرعتُ إصلاحَهُ، فأحسَني، وقال: أَتريدُ إطفاءَها؟ ففهمتُ أنَّه من كمال شغله بالمناجاة، وتمامِ خشوعه في العبادات ظنَّ الساعةَ بعد العشاء، فقلتُ: قد

---

(١) كذا.

أَذَنتُ للفجرِ. فقام وركعَ سُنَّتي الفجر، ثم صلّى بنا الفجر، وخرجَ.

* قال حفص بنُ عبد الله: صلّيتُ خلفَ أبي حنيفة رضي الله عنه صلاةَ الظهر، فلمّا فرغَ توجَّه إلينا، فقال رجلٌ: يا إمامَ المسلمين، أتستحلُّ أن تُصلّي في هذا المحراب، وفيه تصاوير؟ فالتفت إليها، فقال: واللهِ، لأُلازمُ هذا المسجد أربعين سنة، ما رأيتُهُ قطُّ، فأَمَر فطُمست، وذلك من غاية خضوعِهِ ونهاية خشوعه ووفرةِ أدبه، لا ينظرُ سوى مسجده.

* قال شريك: كنتُ مع أبي حنيفة سنةً، فما رأيتُ وضعَ جنبَهُ على الأرض، وكان أصحابُهُ يشهدُ أنَّه كان يُصلّي صلاةَ الفجر[1] بوضوء العشاء.

* قال زُفر: كنتُ يومًا عند الإمام في مسجده، فلم أزلْ أُطارحُهُ حتَّى صلَّينا العشاء، ثم قمتُ للخروج، فخاض الإمامُ في إثباتِ مسألةٍ بأَدلَّةٍ، وأنا قائمٌ على رجلي، فإذا أَذَّنَ المؤذنون للفجر، فلم أعرفْ تعبَ القيام، ولم أشعرْ كيف مضى الليلة بذوقِ كلام الإمام.

* قال مِسْعر: كنتُ أبغضُ أبا حنيفة رضي الله عنه، وأتبع شينَهُ وطعنه، وكان يقول يومًا: يجبُ على الفقهاء أن يتنقَّلَ بحالةٍ لا يراه الناس. ويقول: إذا خالطَ النومُ قلبَه وجبَ تجديدُ الوضوء. قال جسستُ ليلةً أنَّ أبا حنيفة هل يعملُ بقولِهِ أم لا؟ وتفقَّدْتُ وقتَ دخولِ الناس مضاجعَهم، فخرجَ من منزله، ودخلَ المسجدَ، واشتغلَ للصلاة، فلم أقدرِ القيامَ والسهر، فألقيت حصياتٍ في نعليه خفيةً، ورجعتُ، فلمّا بانَ علائمُ الصُّبح، رجعتُ إليه، فوجدتُهُ في مكانه يدعو ويَبكي، ونظرتُ نعليه والحصيات باقيةً كما أَلقيتُ، فلمّا صلّى الفجرَ بالناس بوضوءِ العشاءِ، جلسَ وأدّى وردَهُ، ثم شرعَ بمذاكرة العلم، فلمّا صلّى الظهر جلس لها إلى العصر، ثم إلى المغرب، فلمَّا صلاَّها قامَ ودخل منزله، فأفطرَ

---

(١) في (أ): صلاة الغداة.

وجدَّدَ وضوءَهُ، ثم خرج إلى صلاة العشاء، فلمّا صلاّها دخلَ منزلَهُ كسائر الناس حتى أخذَ الناسُ مضجعَهم، ثم خرجَ على سكينةٍ حتى دخلَ المسجدَ، فقامَ إلى الفجر، فلمّا جلسَ إلى الظهر كما فعلَ أمس، فلازمتُهُ ثلاثةَ أيام على هذه العادة، فعرفتُ أنَّه لا يُفارقُ عادتَهُ إلى أن يموت.

قال: ما رأيتُهُ في النهار مُفطرًا، ولا بالليل نائمًا؛ ولكن كان في أيام التعطيل في الضَّحوة تأخذُهُ نومةٌ خفيفةٌ.

قال: فبدَّلَ اللهُ تعالى عدواني إيَّاه صداقةً، وبُغضي محبَّةً، ثم لما قُضيتِ الفجرُ جلسَ للمذاكرة، فجئتُ عنده مُعتذرًا تائبًا، وقبَّلتُ يده وركبتيه، وقلتُ: يا شيخ، اجعلني في حلٍّ. قال: فكلُّ من اغتابني من الآدميين فهو في حلٍّ، ومن كان من العلماء فهو في حرجٍ حتّى يتوبَ؛ فإنَّ غِيبةَ العلماء تُبقي في الخلق شيئًا لكونه سببًا لفساد عقيدةِ الجهّال[1].

قال: فبعد ذلك لازمتُ مجلسَهُ ومسجدَهُ. حتى روى أبو معاذ بأنَّ مِسْعرًا ماتَ في مسجدِ أبي حنيفة رحمه الله ساجدًا رحمه الله.

* قال أبو الجمّار[2]: صحبتُ أبا حنيفة رحمه الله سنةً، فما رأيتُهُ ليلةً وضع جنبَهُ على الأرض، ويفعلُ قيلولةً تارة.

* قال أبو يوسف بن عمر: رأيتُ مالكًا وأبا حنيفة في مسجدِ رسولِ الله ﷺ يباحثان بعد العشاء، ويتكلّمان بالنوبة والأدب من غير تعسُّفٍ حتى صلّيا الفجر في مجلسهما بلا تجديدِ وضوءٍ.

* قال علي الصيدلاني: إنَّ لأبي حنيفة وردًا بالليل، وهو أن يختمَ القرآنَ، فربَّما يختمُهُ في ركعتين، وربّما يختمُهُ جميع صلاة الليل، ولو ختمَهُ قبلَ تمامِ

---

(١) جاء في هامش (ب) ما نصه: لأنّ الجهّالَ لو رأى عالمًا يسلك مسلكًا يتّبعه متمسّكًا بفعله، وكذا قيل: ذلّةُ العالِم كذلّة العالَم. ومنه ما قيل: العالم كالسفينة إذا عيبتْ يغرقُ معها خلقٌ كثير.

(٢) في (ب): أبو الجماني.

الليل يدعو ويناجي ويبكي إلى وقت الفجر، وأمّا عامةُ نهاره في الفتوى والتعليم صائمًا.

قال: واللهِ، لم ترَ عيناي مثلَهُ في ورعه ودينه.

* قال في «خزانة المُفتين»: كان أبو حنيفة رضي الله عنه يختمُ القرآنَ في كلِّ شهرِ رمضان إحدى وستين ختمًا، ثلاثين في أيامه، وثلاثين في لياليه، وواحدةً في التراويح، وكان ثلاثين سنة يصلّى الفجرَ بوضوء العشاء. رواه أبو يوسف وغيره. انتهى

* قال يحيى بن نعيم: كلّما أتيتُ عند أبي حنيفة رضي الله عنه في مسجده ليلاً [رأيته] يُصلّي إلى الفجر، وآخرُ صلاتِهِ فيه الوترُ، وكنتُ أَسمعُ وقوعَ دموعه على الحصير كأنَّه يقطرُ السَّقفُ من المطر.

* قال خارجة بن مصعب: ختمَ القرآنَ في ركعةٍ واحدةٍ من الصحابة عثمانُ بنُ عفان رضي الله عنه، وكعبُ بن أمية، وتميمُ الداري رضي الله عنهم. ومن التَّابعين: سعيدُ بنُ جُبير، وأبو حنيفة رضي الله عنهما[1].

قال في «خزانة المفتين»: إن أبا حنيفة لما حجَّ حجَّةَ الوداع دخلَ الكعبة، وقام بين العمودين على رجلِهِ اليمنى حتى قرأ القرآن إلى نصفِهِ، فركع وسجد، ثم قامَ على رجله اليسرى ووضع رجله اليمنى على رجله اليسرى[2] حتى ختم القرآن، وركع وسجد، فلمَّا سلَّمَ ناجى ربَّه وبكى، وقال: إلهي، ما عبَدَكَ هذا

---

(١) ورد خبر مماثل في ربيع الأبرار ٢/ ٣٧٠ ولم يذكر فيه كعب بن أمية. ولم أجد لكعب ترجمة فيما بين يدي من المراجع.

(٢) جاء في هامش (ب) ما نصه: فإن قيل: كيف قام الإمامُ على قدمه الواحدةِ، مع أنَّ تمايُلَ المُصلّي على إحدى قدميه مكروه عنده؟ أقول: وذلك من كمال تعظيم بيت الله تعالى، حيث ينزّهُهُ عن أن يطأ قدميه فيه، حتى لو أمكنه الصلاة بدون الوطء لأدّاها به، ولكن أدّاها بقدر ما قدر، لأن الطاعة بقدر الطاقة.

العبدُ الضعيف حقَّ عبادتك؛ لكنْ عَرَفَكَ حقَّ معرفتك، فهبْ نقصانَ عملي بكمال معرفته. فهتفَ هاتفٌ من جانب البيت: يا أبا حنيفة، قد عرفتَ وأخلصتَ المعرفة، وخدمتَ وأحسنتَ الخدمةَ، فقد غفرنا لك، ولمن تبعَكَ، ولمن كان على مذهبك إلى يوم الساعة. رضي الله عنه وعن أصحابه وعن علماء الدين، وعن التابعين لهم إلى يوم الدين آمين.

* قال في تفسير قوله تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: ١٧] قال: من أَحيا الليلَ كلَّه من التابعين غير الصحابة والأنصار والمهاجرين لا يُحصى عددُهم، ولكن نعدُّ بعضَهم من غير المشاهير منهم: علقمة بن مرثد، وحمّاد بن أبي سليمان، وسعيد بن المسيب، وصفوان، وفُضيل، ووهيب، وطاوس، وربيع، والحكم، وأبو سليمان، وعلي بن بكّار، وأبو عبيدة، وأبو عاصم، وابن زينب اليمني، وحبيب[1]، وأبو جعفر، ومالك بن دينار، وسلمان، وجابر، وأبو حازم، ومحمد بن المُنكدر، ومحارب، وعون، وعقبة، وعبد الملك بن عمير[2]، وأبو همام، ويزيد الرُّقاشي، ويحيى، وموسى بن طلحة، وكَهْمَسُ بنُ مِنْهال[3] فإنّهم كانوا يختمون القرآن في كلِّ شهرٍ تسعين ختمة، اثنان في الليل، وواحدٌ في النهار، وكان كلُّهم لا يضعون جنبهم على الفراش في الليالي، ويُصلّون الفجر بوضوء العشاء، فيكون قيامُهم غذاءً لروحِهم، وحياةَ قلوبهم، وضياءَ حواسّهم[4] ولسانهم عن التعطيل في صرفِ ما خُلقنْ له، فلن يكونوا يتبعون بسهر الليالي متلذِّذَ الطاعة والسهر، وكان عندهم معصيةً وقطيعةً عن ربِّهم.

---

(١) في (ب): وجبير.

(٢) في (ب): عبد الملك بن عمر.

(٣) في الأصلين: همس بن منهال، والمثبت من تهذيب التهذيب.

(٤) في (أ): وصيانة حواسّهم.

❊ قال عبد الله بن داود: كان السلفُ إذا بلغَ أحدُهم أربعين سنةً طوى فراشَهُ، ولم يضع جنبَهُ في الليالي إلاّ بقيلولةٍ بعد صلاة الضحى، وكذا من النسوان لا تعدّ كالرابعة العدوية، والميمونة الزنجية وغيرهما.

❊ ❊ ❊